جامعة الأخوين
AL AKHAWAYN UNIVERSITY
ROYAUME DU MAROC
CCME
مجلس الجالية المغربية بالخارج
مركز ابن خلدون لدراسات الهجرة والمواطنة

دراسات في الثقافات المحلية

من البحث الإ ثنوغرافي إلى ممكنات التأويل

كتاب جماعي محكم

تقديم:
د. عبد الله بوصوف

إشراف وتنسيق:
د. عبد الرحيم العطري
د. عبد الكريم مرزوق

إصدارات مركز ابن خلدون لدراسات الهجرة والمواطنة
الكتاب رقم: 9

مؤلف جماعي محكم

دراسات في الثقافات المحلية

من البحث الإثنوغرافي إلى ممكنات التأويل

تقديم:

د. عبد الله بوصوف

تنسيق:

د. عبد الرحيم العطري د. عبد الكريم مرزوق

إصدارات مركز ابن خلدون لدراسات الهجرة والمواطنة

الكتاب: رقم 9

الكتاب: دراسات في الثقافات المحلية: من البحث الإثنوغرافي إلى ممكنات التأويل
تأليف: مجموعة من الباحثين
تقديم: الدكتور عبد الله بوصوف
إشراف وتنسيق: الدكتور عبد الرحيم العطري والدكتور عبد الكريم مرزوق
الناشر: مركز ابن خلدون لدراسات الهجرة والمواطنة
الإعداد للنشر: مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، فاس
المطبعة: مطبعة بلال، فاس
الطبعة: الأولى
السنة: 2023
الإيداع القانوني: 2023MO1066
ردمك: 978-9920-511-07-0
لوحة الغلاف: الفنان التشكيلي محمد الفيلالي

حقوق الطبع محفوظة

الأفكار الواردة في هذا المؤلف الجماعي تعبر عن وجهات نظر أصحابها
ترتيب المقالات خاضع بالضرورة لاعتبارات فنية وموضوعاتية

اللجنة الاستشارية والعلمية الخاصة بالقراءة والتحكيم

- الأستاذ الدكتور عبد الكريم مرزوق، عميد الشراكة والتعاون، جامعة الأخوين، إفران
- الأستاذ الدكتور جمال الدين الهاني، عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط
- الأستاذ الدكتور حسن قرنفل، عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شعيب الدكالي، الجديدة
- الأستاذ الدكتور عبد اللطيف كيداي، عميد كلية علوم التربية، جامعة محمد الخامس، الرباط
- الأستاذ الدكتور إدريس بنسعيد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط
- الأستاذ الدكتور المختار الهراس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط
- الأستاذة الدكتورة زينب معادي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء
- الأستاذ الدكتور لحبيب امعمري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس
- الأستاذ الدكتور أحمد شراك، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس
- الأستاذ الدكتور جمال بوطيب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس
- الأستاذ الدكتور الخمار العلمي، المدرسة العليا للأساتذة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس
- الأستاذ الدكتور عبد الغني منديب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط
- الأستاذ الدكتور عبد الكريم القنبعي ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس

- الأستاذ الدكتور عبد الرحيم العطري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط
- الأستاذ الدكتور محمد عبد ربي ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، المحمدية
- الأستاذ الدكتور عبد الرحمان الزكريتي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان
- الأستاذة الدكتورة حنان بوكطاية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير
- الأستاذة الدكتورة فاطمة الزهراء بوعشرين، المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث، الرباط

الفهرس

تقديم: "النبوغ المغربي"

بقلم: الدكتور عبد الله بوصوف 7

أوراش التفكير

د. عبد الرحيم العطري - د. عبد الكريم مرزوق..... 11

الأصول الثقافية وأساسيات القوة الناعمة

دة. خديجة الهواري 13

إثنوغرافيا الذاكرة الحية بحث في تجارب المسنين بفضاء المدينة

دة. هاجر بوزيد..... 30

أنثروبولوجيا الأنساق الثقافية في طقوس الأعراس حالة واحة إكلي نموذجا

سفيان شعو - د. عبد الرحيم العطري..... 44

الإعداد التقليدي بالأرياف المغربية الترصيد والتثمين

د. ميلود الرحالي - د. حسن ضايض 62

المخازن الجماعية (الإكودار) بالجنوب المغربي

عبد الله فَدَّاح 86

العمار الطيني بالجنوب الشرقي المغربي التحديات والآفاق

د. محمد اوبها..... 110

التراث المعماري أفقا للتفكير واحة تودغى نموذجا

سفيان حليوي - د. عبد القادر امحمدي..... 132

رمزية الماء في الثقافة الشعبية بالمغرب الشرقي

د. فريد أمعضشو 147

التراث المائي بواحات غريس الخطارة بواحة الجرف نموذجا

الصديق الصادقي العماري - د. عبد الرحيم العطري 173

الماء في المتخيل الغرباوي

سميرة البوشتي 195

طقس "الطاظا" بوصفه محللا لأشكال الرباط القبلي قبائل زمور نموذجا

إبراهيم بلوح - لحسن حباد 214

رمزية المكان في المعتقد الضرائحي منطقة الغرب أنموذجا

د. علي تيزنت..... 231

الطقس والرمز والمجتمع بحث في الطريقة الكناوية بالمغرب الواحي

هشام كموني - د. عبد الكريم مرزوق 251

الأبعاد الأنثروبولوجية لطقس النّاير أولاد الحاج بالمغرب الشرقي أنموذجا

د. بلقاسم زياني - د. عبد الغني زياني 269

الزربية الزمورية والثقافة المحلية ترميز الهوية وإعادة بناء الذاكرة

عبدالسلام انهيري..... 281

الحرف التقليدية بأبي الجعد صناعة الخزف نموذجا

عبد العزيز أجدي..... 307

الإنسان الصحراوي بين التراث والمجال

د. البشير البونوحي 315

التراث الثقافي ورهان التنمية التبوريدة المغربيةأنموذجا

د. رضوان ايت إعزى - د. نبيل تاخلويشت 342

الموروث الثقافي الزعري سؤال الإنسان والمجال

مصطفى بنزروالة - ميلود سوالمة 355

"إيزران"أو ذاكرة الريف الشعرية

هاجر غليط 365

التراث المائي بواحات غريس
الخطارة بواحة الجرف نموذجا

الصديق الصادقي العماري
باحث في سلك الدكتوراه (علم الاجتماع)
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس ، المملكة المغربية
د. عبد الرحيم العطري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الخامس، الرباط، المملكة المغربية

تقديم

يعتبر الماء أساس الحياة، لأن عليه تأسست الحضارات وتشيد العمران، ولهذه المادة الحيوية مكانة خاصة داخل المجالات الواحية، ليس فقط لانتمائها إلى النطاقات الجافة والشبه الجافة بل لكون هذه المادة عماد الحياة وضامن البقاء ووقود الاستقرار والارتباط بالأرض والمجال. وإذا كان الماء هو المتحكم في حياة الإنسان الواحي، فإن هذا الأخير نسج طقوسا وأعرافا وعادات وتمثلات تنصب كلها في تقديس الماء، وتحث على الاجتهاد في طلبه بكل الوسائل المادية المحسوسة أو التي تخاطب العالم اللامرئي في بعده الميتافيزيقي. وبذلك تمكنت هذه المادة الحيوية في تشكيل جوانب مهمة من مكونات البنية الفكرية للإنسان الواحي، وهذا التمكن ساعد في بناء منظومة متكاملة من الطقوس والرموز والعلاقات التي تدخل في الموروث المائي الذي يمتزج فيه ما هو مادي صرف، وآخر رمزي وقدسي وأسطوري.

وتعتبر واحة الجرف من المجالات الهشة وشبه الجافة، بحيث تشكل الظروف الطبيعية الصعبة الطابع المهيمن عليها، ورغم ذلك فقد استطاع الإنسان الواحي أن يتكيف معها، وذلك من خلال ابتكاره لنظام "الخطارات" لتدبير الموارد المائية، وقد اكتست هذه التقنية أهمية بالغة لكونها اتخذت أبعادا ثقافية متنوعة، فمنها الجانب التاريخي والاجتماعي والاقتصادي، وذلك بتدبير محكم يسهر عليه مجلس القبيلة بمعية شيوخ الخطاراتو"المْزَارْكْ"، إلا أنه مع توالي سنوات الجفاف وتزايد حدة الفيضانات فقد ازدادت قساوة الظروف الطبيعية، كما ظهرت بعض التدخلات البشرية السلبية كالضخ

الآلي، وكان لكل هذا بالغ الأثر على التراث المائي، حيث تعرضت العديد من الخطارات بواحة الجرف إلى الجفاف والإهمال، وضعف صبيب النشيطة منها، كما عرفت الممارسات والتقاليد المرتبطة بها تراجعا كبيرا مما أصبح يهدد أهم تراث بالواحة بالزوال.

وإذا كانت الممارسات والطقوس والمعتقدات التي لها علاقة بماء الخطارة تختلف من حيث الطرق والوسائل والتقنيات والاستعمالات، فإنها تلتقي في غاية أو غايات موحدة وموجهة للإنسان والحياة والكون. ومن هذا المنطلق نجد الحضور البارز للماء في المخيال الشعبي لدى الإنسان الجرفي والذي تظهر بعض تجلياته في بعض الممارسات والمعتقدات والتي يتكرر بعضها سنويا وموسميا وتقام أخرى عند الحاجة، كطقوس العبور وبعض المناسبات السنوية والمعتقدات السائدة وغيرها. فأهمية ماء الخطارة في واحة الجرف، لم تقتصر على تحقيق الوفرة وتلبية الحاجيات أو الخوف من الندرة والحث على طلبه بكل الوسائل، وإنما يتجاوز ذلك حينما يتخذ بعدا رمزيا وثقافيا، تظهر تجلياته في الممارسات والطقوس في بناء المعتقد الجماعي الذي يعكس علاقة الماء بالعالم اللامرئي وما فوق الطبيعة.

وبالرغم من الأزمة التي تعيشها الخطارات بمنطقة الجرف حاليا إلا أنها تبقى تراثا مائيا عريقا ارتبطت به مجموعة من الطقوس والعادات والتقاليد والممارسات التي تجسد لتاريخ الإنسان بهذه الواحة، ويمكن من خلالها التعرف على الطابع الاجتماعي والثقافي الذي حكمه على مر العصور، كما أنه يساعد على فهم طريقة إنتاج وإعادة إنتاج مجموعة من الطقوس والعادات والأعراف التي حكمت علاقات وتفاعلات الإنسان في بقعة جغرافية قاحلة. مما يدفعنا إلى طرح مجموعة من التساؤلات نراها مشروعة من قبيل: ما الخطارة باعتبارها موضوعا سوسيولوجيا؟ وما هي مجمل الطقوس والعادات والتقاليد والأعراف والقوانين التي ارتبطت بها؟ وكيف ساهمت الخطارة في خلق نوع من الرابط الاجتماعي بين السكان؟ وإلى أي حد يمكن اعتبار الخطارة آلية التماسك والتضامن الاجتماعيين بواحة الجرف؟

1- مجتمع واحة الجُرْف

تضمم واحة الجرف قبائل عرب الصباح غريس، هي تضمن مجموعة من القصور والفئات الاجتماعية المتنوعة، بما فيها الجرف المركز القرى المجاورة، مثل فَرْنَا وأُوْلَادْ جَلَّالْ ولَكْرَايْرْوحَنَّابُو. وهي "تلكْ الفئة من عرب الصباح القادمين من شبه الجزيرة العربية الذين استقروا بالمناطق الواحية الموجودة بالقرب من ضفة واد غريس، وحسب

التقسيم الإداري الحديث فإن هذه المناطق تصنف وفق ثلاث جماعات وهي: الجماعة الحضرية الجرف، والجماعة القروية فزنا ثم الجماعة القروية عرب الصباح غريس.[1] وجميع هذه القبائل تربطهم علاقات اجتماعية كبيرة من حيث المصاهرة وقرابة الدم والبيع والشراء، وكذا نوع الأعراف والتقاليد وخاصة ما يتعلق بالخطارة التي تسير على طول الخطارة من "قصر جديد" التابع لقصر فزنا، حتى قصر حَنَّابُو على الخط الحدودي مع جماعة أرفود.

بالنسبة للجماعة الحضرية "الجرف" فتقع بين مدينة أرفود والجماعة القروية فزنا، وتحدها شمالا الجماعة القروية الرتب، وجنوبا الجماعة القروية مْصِيْصِيْ، وغربا الجماعة القروية فزنا، وشرقا الجماعة القروية عرب الصباح غريس. أما بخصوص "التسمية لها ارتباط بالقوافل التجارية التي كانت تأتي من اتجاهات مختلفة محملة بالبضائع فتستريح بجرف في الجبل، أو ما يسمى ب "جَرف الظل" غرب قرية الجرف، وهناك كانت تتفق حول المواعد لتبادل السلع التجارية أيام ما كان يعرف "بالسيبة"، والحروب الداخلية، ولذلك سميت القرية بالجرف".[2]وضمن واحات عرب الصباح غريس تقع الجماعة القروية "فزنا" على بعد 27 كلم من "أرفود" و7 كلم من "الجرف". وتحدها الجماعة القروية "الرتب"، و"مدغرة" و"الخنك" شمالا، والجماعة الحضرية "الجرف" والجماعة القروية "عرب الصباح غريس" جنوبا. والجماعة القروية ملعب غربا، ثم الجماعة القروية عرب الصباح زيز. وهي تضم مجموعة من القصور كأولاد غانم والعشورية وأولاد جلال وأولاد الشرقي والقصيبة والقصر الجديد.

أما الجماعة القروية "عرب الصباح غريس" تنتمي إداريا لقيادة فزنا دائرة أرفود، كما أنها خاضعة لاستقطاب بلدية الجرف، "تم إحداثها سنة (1992م)، وتقدر مساحتها بـ410 كلم، وتحدها إداريا خمس جماعات وهي: جماعة عرب الصباح زيز شمالا، وجماعة امصيصي غربا، وجماعة عرب الصباح زيز وجماعة بني امحمد شرقا، وجماعة بني امحمد وجماعة اسفلات جنوبا. ويبلغ عدد سكانها حوالي 4937 نسمة حسب إحصاء 2004.

---

[1] السعيدي (عبد الرزاق)، مجتمع الواحات بالجرف(تافيلالت) وأنساقه الثقافية والفنية-مقاربة تاريخية لثقافة وفنون الهامش-، ضمن كتاب جماعي بعنوان: "درعة تافيلالت فنون الفرجة، الأنماط الثقافية والمجتمع"، إعداد وتنسيق: د. عبد الرزاق السعيدي، منشورات جمعية فضاء النخيل للتنمية وتدوين التراث المحلي بالجرف، بدعم من المديرية الجهوية لوزارة الثقافة-درعة تافيلالت، مطبعة ETERCOS، الرشيدية، مارس 2017، ص 16.

[2] السعيدي (عبد الرزاق)، المرجع السابق، ص 18.

موزعة على ثلاثة قصور (حنابو، الكراير والبويا)[1]. إن قبائل عرب الصباح بواحات غريس تشكل عائلة واحدة، لأنهم من أصل واحد ونسب واحد، وبينهم تقاطعات كبيرة لدرجة أنه يستحيل الفصل بينهم من حيث طبيعة العيش والأشكال والتعبيرات الثقافية.

واحة الجرف تشكل نموذجا ثقافيا ضمن المجتمع العام لواحات تافيلالت الكبرى، وهي تتميز بغناها الرمزي على مستوى الأشكال والأنماط الثقافية اللامادية، وتعتبر الخطارة أهم الموروثات التراثية التي تشكل عنصر إجماع من طرف الساكنة لأنها ترتبط بعنصر الماء المجدد للعيش والحياة. أما "الحديث والخوض في التراث الثقافي الشعبي الجرفي يتعلق باستحضار الجرف العريقة بوصفها فضاء ثقافيا رحبا له امتداداته التاريخية والجغرافية الضاربة في عمق التخوم الجنوبية الشرقية للمغرب. فكل الأشكال الثقافية التي أنتجها وأعاد إنشاءها الإنسان الجرفي بواحات غريس لم تكن عبثا، بل ارتبطت بأحداث ووقائع لها علاقة بالزمان والمكان وطبيعة التفكير الإنساني ونمط العيش، وكل الإمكانات والوسائل الثقافية التي ابتدعها أو طورها الإنسان، الممكنة والمتاحة للاستقرار والعيش الكريم"[2]. إنها أشكال تجسد لتفاعلات الإنسان مع المجال، من خلال التأثير والتأثر المؤدي إلى تعبيرات عفوية بمسحة تراثية عريقة، خاصة إذا تعلق الأمر بمورد مائي لامادي وما يرتبط به من تعبيرات رمزية لها أبعاد اجتماعية وثقافية تنعكس على حياة الناس.

فالتراث الجرفي يستمد قوته وشرعيته من القضايا الاجتماعية التي يعايشها الناس في حياتهم اليومية، ونجد ذلك في الأغاني البلدية والأهازيج التراثية والممارسات السلوكية والعلاقات التفاعلية، وهذا ما يمنح هذا التراث القوة والاستمرارية في الزمان والمكان. إن "هذا النوع من التراث الثقافي بإمكانه التطور بشكل مستمر، مستوعبا لما استجد، متكيفا مع المتغيرات والمؤثرات المجتمعية، حسب تعاقب الأجيال وامتزاج الثقافات وتناسجها، وما يترتب على ذلك من تراكم كمي وكيفي. يستمد قوته وشرعيته من الطقوس والمعتقدات الدينية، والتقاليد الموروثة، والأدب الشعبي، من قصص

[1] المخطط الجماعي للتنمية2011-2016 حول الجماعة القروية عرب الصباح غريس، إعداد الجماعة القروية عرب الصباح غريس بدعم من وكالة التنمية الاجتماعية، 2011-2016، ص 9.

[2] الصادقي العماري (الصديق)، مظاهر الثقافة الشعبية عند قبائل عرب الصباح غريس -الطقوس الاحتفالية بواحة الجرف نموذجا-، ضمن كتاب جماعي: الثقافة الشعبية والتراث المحلي بالمغرب الواحي-إشكالات ومقاربات-، تنسيق: د. عبد القادر محمدي، منشورات مختبر الدراسات النفسية والاجتماعية والثقافية-فاس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز-فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله-فاس،مطبعة أنفو-برانت، فاس، المغرب، ط1، 2021، ص 8.

وحكايات وأساطير وأمثال وشعر، وألغاز وموسيقى وإيقاعات ورقصات، وغيرها من الأشكال والممارسات التي تجسد للحضور الإنساني، ومدى إسهامه في بناء الثقافة والتأصيل لهويته"[1].

فالتراث اللامادي الجرفي هو عبارة عن فسيفساء تتشكل من أشكال وعناصر من مختلف المشارب العرقية والقبلية التي تعاقبت على المنطقة عبر التاريخ الطويل. فالمنطقة اعتبرت على الدوام واحة لجذب العديد من الفئات والأجناس البشرية بحكم مؤهلاتها الجغرافية والطبيعية وموقعها الاستراتيجي. فإن"ثقافة أهل واحة الجرف تاريخيا تمتاز بتعدد مشاربها، فاللمسة العربية والأمازيغية والإفريقية ظاهرة من خلال الأشكال الشعبية الغنائية، والتي تعبر عن ثقافة الواحات عامة في العالم العربي من حيث بنائها الجوهري، خاصة في التعبير عن حاجات ودوافه الإنسان الواحي، وما يتعلق بالتراث المائي العريق بخصوص نظام الخطارة باعتبارها نموذجا ثقافيا تتمحور حوله الحياة وما تتضمنه من علاقات وتفاعلات اجتماعية. إنها تبرز صورة نمط وأسلوب الحياة في التواصل والعيش المتضامن، رغم خضوع هذه الأشكال لمتغيرات وديناميات عميقة بفعل الترحال والهجرة الداخلية والخارجية"[2].

1-2 نظام الخطارة بواحة الجرف

تمكن الإنسان الواحي بمنطقة الجرف، على مر التاريخ، من التكيف مع البيئة المحلية رغم قساوة وشح الظروف الطبيعية، حيث عمل على إنتاج الشروط والقوانين المناسبة لذلك، من خلال "إنشاء قلاع وقصور وقصبات، مستعملا الطين والطوب والحجر والماء والتبن، ومنتوجات محلية من خشب الأشجار. كما تم خلق نظام مائي يعتمد على مصادر تقليدية مثل الآبار و"الخطارات" وأشكال بورية، من أجل بناء نظام إنتاجي محكم، للتحكم في تعبئة الثروات المائية، لضمان استقراره واستمراريته"[3]. هذا التفاعل مع البيئة الصحراوية في مجالات الحياة الطبيعية والثقافية والاجتماعية، يبرز الأهمية البالغة لهذه البيئة باعتبارها نظاما وإنتاجا فكريا يحمل تصورات ومعتقدات وطرائق وأساليب الإنسان الواحي في التفكير والعمل، سواء تعلق الأمر فالأفراد أو الجماعات.

---

[1] الصادقي العماري (الصديق)، المرجع السابق، ص 17.

[2] الصادقي العماري (الصديق)، المرجع السابق، ص 18. بتصرف.

[3] الصادقي العماري (الصديق)، تحولات المجتمع القروي بالمغرب-نماذج وقضايا-، ضمن كتاب جماعي: ديناميات وتحولات المجتمع المغربي-دراسات سوسيولوجية وأنثروبولوجية-، تنسيق: الصديق الصادقي العماري ورشيد الزعفران، مطابع الرباط نت، الرباط، ط1، أبريل 2020، ص 11.

النظام السقوي بواحة الجرف، في غالبيته، يرتبط بمياه الفيض وبماء الفرشات الباطنية للمنطقة، وقدظلت هذه المياه موردا مغريا للاستقرار بهذه الواحة، ومن هذا المنطلق تم خلق وسائل وآليات لجلب واستغلال المياه الجوفية بالأساس ومنها نظام الخطارة. حيث"كان النظام السقوي من أهم الأنظمة التي ترتكز عليها الأنشطة الزراعة والفلاحة، إذ عمل الإنسان الواحي على ابتكار قواعد وتقنيات وعادات وأعراف مشتركة تقنن هذا النظام، سعيا منه لتدبير حالات الندرة والفيض للتكيف مع ظروف القاهرة"[1]. وبهذا يعتبر الماء عصب الحياة بالواحات باعتباره من الموارد الطبيعية والاقتصادية المحركة لعمليات الإنتاج والاستهلاك والاستقرار في المجال، فبفضله عرفت الواحات أنشطة فلاحية منتجة.

وقد اعتبرت الخطارة بواحة الجرف، منذ القدم، هي الوسيلة المستعملة لجلب المياه وتوجيهها نحو الأراضي الزراعية والفلاحية، وهي "عبارة عن قنوات تحت أرضية قد يصل طول الواحدة منها إلى ثمانية كيلومترات أو أكثر، وتتصف القناة بعلو يتراوح ما بين مترين و20 مترا، ويختلف هذا العمق من منطقة إلى أخرى بحسب عمق الفرشة المائية، كما يعرف تناقصا كلما انتقلنا من العالية في اتجاه السافلة"[2]. وتسمى أيضا بالفجارات كما هو الحال بواحة فكيك، باعتبارها "تقنية تقوم على تصريف مياه مدفونة في الأرض عبر قنوات باطنية إلى أن تخرج إلى السطح عن طريق الجاذبية"[3]. وبهذا يمكن اعتبارها بمثابة تقنية ونظام تقليدي للسقي بمنطقة الجرف، قد عرفها الإنسان الجرفي منذ قرون غابرة في المناطق شبه الصحراوية.

ونظام الخطارة بمنطقة الجرف، كما هو الحال بالنسبة لواحات الجنوب الشرقي المغربي، يشتغل وفق قوانين وأعراف وبنيات خاصة متفق عليها من طرف الجماعة الاجتماعية، كما يرتبط بمجموعة من العادات والتقاليد والطقوس تحكم السير العادي للخطارة خاصة في ما يتعلق بتوزيع الساعة المائية، أو المداومة للإشراف على تطبيق

---

[1] الصادقي العماري (الصديق)، ومرزوق (عبد الكريم)، السقي في المجال الوحي: عادات وتقنيات، ضمن: الطقوس والممارسات الفلاحية: إثنوغرافيات التراث اللامادي، تنسيق: د. عبد الكريم مرزوق ود. عبد الرحيم العطري، الناشر: جامعة الأخوين-إفران ومؤسسة مقاربات-فاس، ط1، 2022، ص 75.

[2] العربي (عبد العزيز)، وعلي فالح، نظام الخطارات تراث مائي غني يواجه إشكالية ندرة المياه وتحدي التغير المناخي، واحات المعيدر أنموذجا، منشورات مجلة التغيرات المناخية والتنمية الترابية بالمغرب، 2017، ص 29.

[3] مزوز ليلى، بوصفيح صباح، بابا خويا (محمد)، الموارد المائية بواحات تافيلالت بالمغرب بين إكراهات الندرة وإشكالية التدبير، دراسة حالة واحة الجرف، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 05، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، ألمانيا، 2018، ص 296.

القوانين والأحكام وغيرها. وبنية الخطارة تتكون من مجموعة من الأجزاء، "أولها البئر الرئيسي (العين)، الذي يعتبر أول بئر في سلسلة الآبار التي تكون نظام الخطارة وأعمقها، فهو بمثابة عين الخطارة، وذلك لأنه يمكن من استخراج مياه الفرشة الباطنية وتجميعها قبل صرفها باتجاه القناة التحتية، هذه القناة تتكون من جزأين، جزء مغطى يمتد في عالية القناة، وآخر مكشوف بالقرب من المجال الزراعي المسقي بالخطارة، ويرتبط مباشرة بشبكة التوزيع في حالة غياب حوض لتجميع مياه الخطارة. أما سلسلة الآبار التي تفصل فيما بينها ما بين خمسة أو10 أمتار، فلها عدة وظائف، منها تسهيل ولوج العمال إلى القناة الباطنية للخطارة للقيام بالأعمال الخاصة بحفر واستصلاح القناة، كما أنها توفر لهم الهواء والضوء، إضافة إلى أنها تصلح لاستخراج الأحجار والأتربة أثناء الحفر"[1].

و تخضع الخطارات لقوانين عرفية، بحيث لكل خطارة رئيسها يسمى بالشيخ، والذي يحتل قمة هرم إدارتها، و"يتم تعيينه إلى أجل غير مسمى، كما يحق للساكنة أن تحرمه من مهامه إذا اتضح أنه لا يفي بوظفيته الرئيسية لضمان استمرارية الخطارة، وفقا لشروط مضبوطة كأن يكون ناضجا وذو خبرة، وتوفره على ساعات من الماء، وأن يحظى باحترام وثقة الساكنة، ومقيما بالقرب من الخطارة"[2]، ويقوم بأدوار أساسية، ومن أبرزها "اتخاذ جميع القرارات اللازمة للحفاظ على صبيب الخطارة، كما يسهر على تدبير ميزانيتها، ويتدخل في التحكيم للنزاعات التي تكون بين أصحاب الحقوق"[3]. والشيخ في إشرافه وتدبيره لكل أمور الخطارة يستعين بأشخاص محددين "يساعدونه في مهامه والذين يسمون محليا بلَمْزَارَكْ"[4]. ويتوزع الماء بالخطارات عبر دورة كاملة تحدد حسب

---

[1] مهدان امحمد، خطارات الجنوب الشرقي للمغرب تراث يستحق الاهتمام، مجلة الموروث، العدد 22، منشورات معهد الشارقة للتراث، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، يونيو 2021، ص 41.

[2] Sanae bouhamid Alaoui, "Evaluation des performances technico économiques A l'échèle des exploitations Agricoles des oasis de Tafilalet, cas des permetreaoufous et jorf", projet de fin d'études pour l'obtention du diplôme d'ingénieur d'état en Génie rural, Institut Agronomique et vétérinaire Hassan2. 2011, P: 40.

[3] Spoerry Sylvie, "le retour en eau des khettaras de jorf, une oasis du Tafilalet, SUD EST du Maroc. dynamique de gestion de l'eau, En vue de l'obtention du diplôme d'ingénieur en agronomie tropicale de L'IRC supagro, option gestion sociale de l'eau, programme de lutte contre la désertification et lutte contre la pauvreté par la sauvegarde et la valorisation des oasis, composante Tafilalet, association de lutte contre la désertification et pour l'environnement, 2007, P: 81.

[4] Sanaebouhamid,opcit, P: 41.

كل خطارة على حدة، فمثلا بعض الخطارات تصل مدة دورتها إلى 14 يوما، وأخرى إلى 20 يوما وهكذا، وداخل هذه المدة الزمنية يتم توزيع الماء بشكل دقيق ومضبوط حسب حصة كل فرد من ذوي الحقوق، بحيث "يتم تقسيم الماء إلى نوبة، وهي أكبر حصة مائية، والتي تصل إلى 12 ساعة، كما تنقسم النوبة بدورها إلى النصف والربع ثم الثمن"[1].

فالشكل الذي أنشئت به الخطارة بمنطقة الجرف يبين مدى حنكة السكان في خلق نظام سقوي من شأنه أن يتجاوز حالات القحط والجفاف في منطقة شبه صحراوية، وهي براعة تنم عن القدرة الكبيرة لتكيف الإنسان الواحي الجرفي مع قساوة الظروف الطبيعية وتشبثه بالأرض رغم العزلة وقلة الإنتاج. فإن وجود الخطارة بواحة الجرف يؤكدبقوةعلى أن هذه الواحة كانت تتعرض لحالات عصيبة نتيجة تدبدب جريان الوادي، لكن "الظاهر من خلال تتبع تنظيم مياه الخطارة، أن هناك تبياناً شديداً في تمَلُك الماء والأرض في واحات غريس. حيث وجدنا في بعض الخطارات أن هناك ارتباط وَثيقا بين المَاء والأرض، فلا مَجال لبيع الماء بدون الأرض، ولا الأرض بدون الماء، وهذا يدل على اقتران الماء بالأرض"[2].فالأرض بالنسبة للإنسان الجرفي، كما هو الحال بالنسبة للإنسان القروي عامة، هي الوسيلة المركزية لاستمرارية الحياة، وهذا يتطلب بالتأكيد توفر مورد مائي حقيقي، لذلك كانت العلاقة وطيدة بين الماء والأرض.وهذا لن يتحقق إلا عبر تجنيد طاقات تقنية وبشرية هائلة، وخلق تنظيم اجتماعي محكم يستجيب لتدبير الثروة المائية والمحافظة عليها، لذلك عمل سكان الجرف، منذ زمن غابر، على سن قوانين وأعراف لتنظيم أعمال صيانة الخطارة لتكون دائمة الجريان.

وبهذا، شكلت الخطارات بمنطقة الجرف تراثا مائيا عريقا، ارتبط بممارسات وسلوكات تقليدية مُحْكمة في إدارة وتدبير المياه، من خلال قوانين عرفية تحت إشراف الشيخالذي يحتل قمة هرم إدارتها، ويقوم بأدوار أساسية، ومن أبرزها "اتخاذ جميع القرارات اللازمة للحفاظ على صبيب الخطارة، كما يسهر على تدبير ميزانيتها، ويتدخل في التحكيم للنزاعات التي تكون بين أصحاب الحقوق"[3]. وتعرف الخطارات عامة أعمال

---

[1] SpoerrySylvie,opcit, P: 89.

[2] زين العابدين (عمر)، الماء والأرض بواحات زيز وغريس الأسفلين، دراسة في أثر الماء في المجتمع والذهنيات، ضمن كتاب جماعي بعنوان: واحات زيز وغريس -المجال والإنسان والمجتمع-، تنسيق: الصديق الصادقي العماري ورشيد الزعفران، مطبعة شمس برانت، سلا، المغرب، ط1، غشت 2021، ص 142.

[3] Spoerry Sylvie, Ibid, P: 8.

صيانة مستمرة من أجل الحفاظ على صبيبها بانتظام، وهذه الأعمال غالبا ما تكون بطريقة تشاركية تضامنية، تشمل جميع أفراد الجماعة الاجتماعية للقبيلة، وتأخذ بعين الاعتبار نوع وحجم ملكية الأرض التي على أساسها تقسم الأعمال، ففي واحة الجرف مثلا "يساهم كل المنتسبين إلى الخطارة في مختلف أعمال الصيانة عن طريق العمل مباشرة أو عن طريق دفع الأجر حسب حصته من الماء"[1]. وبهذا شكل التدبير التقليدي للخطارات بواحة الجرف تراثا مائيا لا ماديا اكتسى أهمية وقيمة كبيرة نظرا لبعده التاريخي والاجتماعي والثقافي والإيكولوجي...، ولاحتضانه عدة ممارسات وتقاليد تبرز مسألة التكيف مع مختلف الظروف الطبيعية القاسية.

مما سبق، يقصد بالخطارة بواحة الجرف تلك القناة الباطنية التقليدية التي يتم بواسطتها توصيل المياه من العالية إلى السافلة لسقي الحقول والمزارع، وهيعبارة عن آبار متصلة فيما بينها بنفق يحمل المياه عبر مسافة طويلة من منابعه إلى مقاصده. وتخضع الخطارة إلى مجموعة من الأعراف والقوانين والشروط والضوابط خاصة ما يتعلق بتوزيع الماء على أصحاب الحقوق، وكذا أنشطة التنظيف والتهيئة والترميم والمراقبة والمتابعة وغيرها، وهذا النظام له علاقة كبيرة بالعلاقات الاجتماعية ونوع التراتب الاجتماعي داخل القصر. فإن نظام الخطارة بواحة الجرف لا ينفصل تماما عن النظام الاجتماعي داخل المجتمع نفسه.

3- الأبعاد الاجتماعية والثقافية لتراث الخطارات

كل مجتمع يُنتِج مجاله الخاص، ويُنظم علاقته الانتاجية والاجتماعية، حسب تطوره ومستواه التقني. فالإنسان يسارع من أجل تنظيم مجاله وتغييره حسب حاجاته ومتطلباته، لكن في المقابل، هذا الأخير يؤثر في الإنسان وفي أشكال حياته. وعلى الرغم من تطور المجتمعات وتغيير أساليب حياتها وتقنيات إنتاجها، فإن المجال يحتفظ بهياكل وبنيات تشهد على التأثيرات المتبادلة بينه وبين الإنسان، وتجسد لوجود هذا الأخير وقوته الإبداعية في تراكم خبرات وتجارب عريقة. كما هو الحال بالنسبة للتراث المائي المتعلق بخطارة الجرف، ودوره إعادة هيكلة بنيات وقيم هذا المجتمع. فقد ساهمت الخطارات إلى جانب المنشآت المعمارية التقليدية كالقصور والقصبات قدر المستطاع في ضمان استقرار السكان، ولعبت دورا حاسما في تنظيم وتوزيع التجمعات

[1]Sanaebouhamid, Ibid, P: 41.

العمرانية، وأسهمت في مزاولة أنشطة فلاحية على وجه الخصوص، علاوة على دورها المحوري في نسج العلاقات والروابط بين الأفراد والجماعات المحلية"[1].

نشير إلى أن ملكية ماء الخطارة لها دور أساسي في تشكيل البنيات الاجتماعية لمجتمع واحة الجرف، وكذا في فهم البناء الاجتماعي وتراتبيته، كماأن الماء محدد مهم في بلورة البنية ككل وتشكيلها في المجالات التي تُعد إلى حد كبير مجالات للندرة المائية. لذلك "ساهمت الخطارات في تنظيم العلاقات بين الجماعات والأفراد، ومكنت من تدبير الموارد المائية المتاحة، موفرة بذلك مياه السقي لمختلف الأنشطة الزراعية المنتشرة بالواحة، وفق تنظيم محكم وتوزيع متين الأسس والقواعد بينهم (الأعراف)"[2]. فالذي يملك نوبة أو أكثر من الماء في خطارة من الخطارات يتميز بحيازة قدر من التأثير داخل المجتمع، وبالتالي يمتلك نصيبا من سلطة القرار تمكنه من الانتماء إلى مستوى من مستويات التراتب الاجتماعي، وبهذا يعتبر ماء الخطارة مصدر قوة للتأثير في القرارات الحاسمة داخل اجماعة باعتبارها مؤسسة اجتماعية وسياسية تتحكم في جانب منها في تدبير قضايا الماء.فإن "الخطارة تعرف نظاما خاصا في توزيع مياهها وتصريفه على ذوي الحقوق، وهذا النظام تُرافقه مؤسسة تسهر على تدبيره والقيام بشؤونه، يكون على رأسها شَيخ الخطارة القائم على ضَبط شؤونها ومراقبة أحوالها بمعية مجموعة من المساعدين له. حيث تتم عملية توزيع مياه الخطارة بناء على قوانين وأعراف محلية، وذلك حسب الحصة التي يملكها الفرد داخل نظام التوزيع، والذي تُحفظ من داخله أدوار المستفيدين وفق ما هو منصوص عليه في وثائق الخطارات"[3].

نظام السقي بالخطارات بالمجتمع الجرفي لا يعكس فقط الجانب التقني وآلية التزود بالماء، بل يحمل دلالات ومعاني رمزية عميقة لها أبعاد اجتماعية كبيرة، باعتبار الماء عنصر حيوي يشكل مركز ثقل الجماعة، ونقطة ارتكاز العلاقات والتفاعلات الاجتماعية بما تحمل من توافقات ونزاعات وصراعات بين الجماعات والقبائل. لذلك"نظامالخطارات ليس فقط سياسة محكمة لتدبير ندرة الموارد المائية، بل هو أيضا

---

[1] علاحمو عمر، وهلال (عبد المجيد)، أهمية الحفاظ على الخطارات وإمكانيات إدماجها في صيرورة البناء الترابي بواحة تودغا (المغرب)، مجلة مدارات تاريخية، المجلد 01، عدد خاص، الجزائر، أفريل 2019، ص 136.

[2] علاحمو عمر، وهلال (عبد المجيد)، المرجع السابق، ص 138.

[3] زين العابدين (عمر)، الماء والأرض بواحات زيز وغريس الأسفلين، دراسة في أثر الماء في المجتمع والذهنيات. ضمن كتاب جماعي بعنوان: واحات غريس وزيز المجال، والإنسان، والمجتمع، تنسيق: الصديق الصادقي العماري ورشيد الزعفران، مطابع الرباط نت، الرباط، أبريل 2021، ص 189.

تجسيد لواقع الروابط الاجتماعية والعلاقات الجماعية السائدة بينمختلف أفراد الجماعات والقبائل، إذ أنها تحمل في عمقها علاقات التعاون والتضامنالموجودة بينهم، ومن بين أشكال ذلك ما يسمى ب "التويزة" و"حد الصايم"[1]. وبالتالي هذا النظام تلتئم حوله جملة من العلاقات التضامنية والتعاونية خاصة في مسألة صيانة وتنظيف الخطارة، إذ أنه ينبني على جملة من الأعراف والعادات والتقاليد التي تظهر بشكل كبير درجة اللحمة بين جميع أعضاء الجماعة، لأن هم الخطارة هو هم جماعي وتلتف حوله جميع المصالح المعيشية لأنها ترتبط بالماء.

فالعبور إلى اللغة الرمزية لماء الخطارة، باعتبار المجال الرمزيهو مجال لتراكم التمثلات الاجتماعية، هو تحوللكشف عن طبيعة التفكير ونظرة الإنسان الواحي إلى واقعه. بل "حتى التضامن الآلي الذي مازال يطبع هذه المجتمعات بخصوص صيانة السواقي وتنظيمها التي قد تكون ممتلئة بالأتربة والأحجار والخشب، حيث يشترط لكل شاب يبلغ وقت الصيام أن يلتحق بالعمل الجماعي دون استثناء ومن هنا أتت تسمية(حد الصائم) أي وقت بلوغ الصيام. وهو شكل من أشكال التويزة يجتمع فيه أهل القصر من أجل مصلحة جماعية"[2].فالمخيال الثقافي للإنساني الجرفي تفاعل مع عنصر الماء ورفعه من صيغته الطبيعية إلى طابعه الرمزي والثقافي، أي نقل العلاقات،بمختلف أشكالها وأبعادها، المرتبطة بالماء منالماء باعتباره ماء في بعده الوحيد، إلى الماء كعنصر ومورد متشعب الأبعاد. فماء الخطارة يتميز بقوته الارتباطية لأنهيمتلك القدرة علىتشكيل علاقات في سياقات مختلفة (دينية، سياسية، صراعية، إيديولوجية، اجتماعية،...) وبالتالي، فإن الماء يتميز بأبعاده المختلفة وقوته على تدبير المشترك لأنه محور إجماع والتفاف الجماعة، وقوته تتجاوز أهميته كمورد مادي رغم قوتها كوظيفة مباشرة.

فالانسان الجرفيعملعلى بناء الخطارات التي تمكنت من البقاء لمدة كبيرة من الزمن.كماحفر الآبار الكبيرة والصغيرة، وشيد السدود بوسائل بسيطة من الحجر والخشب، إضافة إلى ربط الأودية بالسواقي التقليدية وفق نظام متكامل، ومن ثم إلى الحقول الزراعية، لكن هذا جاء بتوازنمع بناء قيم وعادات وتقاليد ومعتقدات وأشعار وأمثال شعبية وممارسات اجتماعية وثقافية وأنظمة تجاه نفس البنيات التي شيدها بنفسه. أو التي تشكّلت بفعل الطبيعة، ففرح الجماعة كان مرتبطا بوجود الماء وجريانه

---

[1] عمر، وهلال (عبد المجيد)، المرجع السابق، ص 143.

[2] عمر (عمر)، المرجع السابق، ص 127.

في الخطارة، وقلقها في غيابه، حيث كانت تعقد ولائم للصدقة والذكر من أجل التذرع لله من أجل الغيث بالماء، كما تعقد نفس الولائم بزيارته. وهذا الأمر أثّر على أنماط أخرى في الحياة اليومية للإنسان الواحي كسلاسل الإنتاج الفلاحي والتحول في طبيعة المزروعات وخلق نظام مائي هجين يجمع بين الآليات التقليدية والمعاصرة. فالخطارة بالنسبة لساكنة الجرف تعتبر معيارا للتفوق أو الانحدار داخل الجماعة الاجتماعية، لأن عدد النوبات المائية التي يحظى بها الشخص تخبربمقدار امتلاكه للأراضي الفلاحية والزراعية، وهو مؤشر على القوة التأثيرية في المجتمع، خاصة على مستوى القرارات التي تتخذ من داخل "اجماعة" بخصوص قضايا المجتمع الجرفي عامة.فالأرض والتي يتمحور وجوده على وجود الماء، لم تعد منحصرة في صورتها النمطية باعتبارها وسيلة وآلية للإنتاج، بل تحولت إلى المعيار المادي لنوعية الانتماء القبلي والقبلي والاجتماعي. و"لا شك أن لمكانة الأرض في مخيال الإنسان الواحي بعدا قِيمِيا لا يستطيع معه التخلي عنها، فالتخلي حسب اصطلاح الإنسان الفلالي، هو تخلي على "البلَاد" حيث العشيرة، وحيث الدفء الذي يملأه فَضاء القصر، عبر اللحمة القبلية والعلاقات القرابية"[1].

فقد أثر نظام الخطارة في البنية الثقافية للمجتمع الجرفي، باعتباره مجتمعا يضم العديد من الفئات الاجتماعية والأعراق المختلفة والمتعددة، تعايشت فيما بينها لمدة طويلة، وبذلك تشكلت جملة من الأنماط والأشكال الثقافية والفنية حول الخطارة وكل ما يتمحور حولها من علاقات وتنظيمات واعراف وأشعار واغاني، وبالتالي: [2]

- الخطارة أنتجت طقوس الاحتفال: عندما تقوم جماعة الخطارة بالإعلان عن بداية عملية تنقِية، أو حفر جزء من الخطارة، تقوم بطقوس احتفالية تتجلى في مأدبة غذاء أو عشاء يحضرها كل أفراد القصر صَغيرهم وكَبيرهم، ذُكورا وإناثاً. ويعتبر هذا الحفل بمثابة شُكر لله سبحانه وتعالى على مِنة المَاء الجَديد.
- إن الخطارة أفرزت إنشاد قَصائد ملحونية تتغنى بالماء وطرق استغلاله، خاصة قصيدة الزجَّال الفلالي المهدي بُوزكري، حول الهِجَاء الذي دَار بين الخَطارة وأغْرُورْ.

---

[1] الطايعي (امبارك)، البنيات الزراعية والبنيات الاجتماعية وأفق الاستمرار والانقطاع في الواحات المغربية: واحة تافيلالت نموذجا، أطروحة لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الانسانية أكدال، الرباط، 2008.، ص: 140.

[2] زين العابدين (عمر)، المرجع السابق، ص 142-143.

- الخطارة أعطت ذِهنية واعِية بأهمية توثيق كل عَملية الخطارة من بيع أو شراء أو فَرْض مُساهمات أو إصلاح. وذلك يتضح من خلال تدوين الوثائق والرسومات العدلية.
- إن الخطارة أنتجت مجموعة من العَائلات المَيسورة، والتي تتوفر على أجزاء هامة من الحصص المائية، وذلك من خلال عَملية بيع أو كراء حقوقهم المائية. وبالتالي أضحت هذه العائلات تقوم بإقراض مُختلف أفراد القصر الذين يحتاجون إلى قَرض مالي، زيادة على قيام هذه العائلات ببيع مجموعة من النخيل من أجل كسب رأس مال جديد.

فإن التراث المائي المرتبط بالخطارة بمنطقة الجرف يحمل في طياته طقوس تعبر عن كريقة وأسلوب عيش الإنسان الواحي الجرفي، وكذا جل الإنتاجات الإبداعية التي خلقها في علاقته بالبيئة المحيطة به. فقد حاول الإنسان إلى تحويل اللغة الطبيعية المرتبطة بالماء وآلية جلبه إلى لغة رمزية مليئة بالشحنات الانفعالية والاجتماعية والثقافية، وربما السياسية والأيديولوجية. فاء الخطارة ليس فقط ذلك المورد الحيوي المرتبط بالفلاحة والزراعة والبيع والشراء، بل أصبح الحصول عليه رهين بمجموعة من الممارسات السحرية والتعبدية والخرافية، بل عند البعض من قبائل المجتمع الجرفي آلية للاغتناء أو الفقر.فإن"الإنسان مرتبط بالماء بشكل وثيق لدرجة أن الاستقرار مرتبط بشرط وجود الماء، باعتباره مصدرا للعيش، غير أنه ارتبط بمجموعة من الممارسات الثقافية: لدرجة أن الإنسان أصبح يعتقد بقدسية بعض المصادر المائية كالبحار والينابيع، ونسجه لقصص وحكايات وخرافات وأشعار حول الماء، كما أنه أصبح مصدرا للقوة والزعامة، إذ تصبح السلطة في صف من يمتلك حصة كبيرة من الماء، أو القادر على جلب كميات كبيرة منه"[1]، لذلك أصبح ماء الخطارة في المتخيل الشعبي الجَّرْفِي عبارة عن خزان طبيعي للعديد من العادات والمعتقدات التي تجمع بين المرئي واللامرئي، وبين التاريخي والأسطوري، مما أعطى للماء طابعا رمزيا وطقسيا متميزا في سلوكيات الإنسان الجرفي خاصة.

فالاحتفالية بوجود ماء الخطارة بواحة الجرف تتجسد في طقوس من الرقص والغناء والشعر... أما الذبيحة فتبدأ من الدجاج "الفروج"، أو المعز أو الغنم، بل كل ما يكفي

---

[1] العماري (الصديق)، الماء في الممارسات الثقافية الشعبية بواحات الجنوب الشرقي المغربي- واحة فركلة تنجداد نموذجا، سلسلة الموروث، العدد 22، منشورات معهد الشارقة للتراث، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، يونيو 2020، ص 20.

للإطعام وتجسيد البهجة والسرور. والحصول على الماء في المتخيل الشعبي للإنسان الواحي عامة يكون رهينا بوجود مجموعة من السلوكات والمعتقدات الدينية والخرافية بالأساس،وترتبطبالبركة وبقوة المخلوقات العجائبية وبتقديم القربان، من قبيل "راه النية الصافية هي كلشي"،... وعندما يتحقق المراد يتم الاحتفال بذلك بالذبيحة، في جو يسوده الفرح والمرح بالدقائق التي قد سيحصل عليها...، إلا أن الذبيحة تختلف حسب المكانة الاجتماعية التي يحتلها الفرد"[1].وبالتالي تتم كل الممارسات المرتبطة بالتراث المائي بطقوس وعادات رمزية تعبر عن الإنسان الجرفي والواحي الوفي لأصالته وهويته المحلية. فجميع الأشعار والأقوال والحكم والولائم التي ترتبط بالماء تتأطر في منظومة قيم اجتماعية وثقافية أنتجها الإنسان في علاقته بالبيئة المحيطة به، وفي ظل الحاجة والرغبة في تحقيق الرفاهية والعيش الكريم. فالإنسان الواحي الجرفي كائن اجتماعي ورمزي في نفس الوقت، يؤثر في محيطه ويتأثر به، ويسعى دائما إلى خلق منافذ حقيقية لتوسيع دائرة عيشه وتفكيره.

وقد أنتج نظام الخطارة مجتمعا "جرفيا" فلاحيامتكاملا وفق علاقات اجتماعيةيطبعها التعامل بشكل متفرد، ويظهر ذلك عندما يقوم بعضهمبالتنازل عن حقه المشروع في الماء من الدورة السقويةلفائدةشخص آخر في حاجة ماسة إلى الماء، خاصة إذا كان هذا الأخير قد قام بزراعة وغرس مزروعات تحتاج إلى الماء بشكل دوري ومكثف، خاصة في فصل الصيف. بشرط تنازل الفلاح الثاني، عن حصته من الماء في الدورة القادمة، في حالة طَلب الفلاح الأول رَد حِصته. وهو شكل من أشكال التضامن يفتح آفاقا للعيش الكريم في طل علاقات من الود والتراحم. فالتراث المائي بواحة الجرف المرتبط بنظام الخطارة، خلق مسارات رحبة للتعايش والاستمرارية في منطقة جغرافية قاحلة، لعبت القيم والأشكال والأنماط الثقافية الرمزية دورا كبيرا لإعادة الاعتبار للأرض والإنسان والعلاقات الاجتماعية الإيجابية.

كما أنتجت الخطارة أسرا ميسورة داخل المجتمع الجرفي، بفعلحيازة أجزاء كبيرة من الحصص المائية، نتج ذلك من خلال عملية بيع أو كراء حقوقهم المائية. حيث أصبحتالأسر تقوم بإقراض مختلف أفراد الذين يحتاجون إلى قرض مالي، إضافةإلى قيام هذه الأسر ببيع مجموعة مهمة من شجر النخيل من أجل إنتاج رأس مال جديد وتراكمه

[1] جبران حسن، عنصر الماء والرواسب الثقافية بواحة فركلة/تنجداد، ضمن كتاب جماعي بعنوان: الواحات المغاربية [المجال والمجتمع والثقافة]، تنسيق: د إبراهيم حمداوي، ود محمد دحمان، مطابع الرباط نت، الرباط، المغرب، 2019، ص 152.

مع الوقت. "فسيادة ثقافة المصلحة الشخصية، ويظهر ذلك جليا، عند قيام أحد أفراد المجتمع بعقد زواج، فإن عائلة هذا الرجل تبحث عن الأسر الميسورة لكي تربط معها علاقات مصاهرة، وبالتالي تستفيد هذه الأسر. والأكثر من ذلك، اختيار زوجات تنتمي إلى القصور التي تتوفر على خطارات، على أساس أن أهل الزوجة عندما يتوجهون إلى بيت ابنتهم يجلُبون لها جل المواد الفلاحية التي تنتج في مجال خطارتهم. وإلا ينظر لأهل العروسة نظرة دونية يمكن أن توصف بمجموعة من النعوت القَدحية المحلية (عائلة قْسِيفَة، بَخِيلة، مَزْلُوطَة... وكلها كلمات عامية)، وبالتالي تنعكس على حياة الزوجة في بيتها، وفي الأخير تستفيد عائلة الزوج من رابطة المصاهرة. وربما تستفيد من بعض الحصص المائية في الخطارة في حالة تقسيم الإرث والتركات"[1].

4- رمزية ماء الخطارة في طقوس العبور

تعد طقوس العبور منظومة من الأشكال الثقافية التي تتمظهر في شكل احتفالات جماعية في المناسبات والأعياد، ومنها ما يرتبط بالشخص الفرد، ومنها ما يرتبط بالجماعة، كما تتمظهر في النشاطات اليومية للإنسان، وهي طقوس تبرز مظاهر التحول والانتقال داخل دورة الحياة؛ الذي لا يتصف بالقطيعة وإنما بالتواصل والاتصال والامتداد، لأن كل مرحلة سابقة هي أساس للمرحلة المقبلة من حيث التأطير والتأهيل، وهذا الانتقال يتطلب شروطا وقواعد لا بد من توفرها كالنضج النفسي والجسدي والعقلي والفكري والجنسي، بناء على ما تحدده الجماعة وما يخدم مصالحها ويعبر عن ثقافتها وانتمائها الديني والعرقي. ويمكن اعتبار طقوس العبور بمثابة "الخطوات أو الإجراءات التمهيدية التي تنطوي عادة على مراسيم احتفالية وطقوس شعائرية وتنتهي بدخول المرء كعضو في جماعة وانتمائه إلى فئة اجتماعية معينة، مثلما تضمن تمتعه باعتيازات محددة وتشير إلى كونه قد أصبح عضوا كامل العضوية أو عضوا راشدا في الجماعة"[2].

فالجماعات الإنسانية تحاول الوقوف عند هذه المراحل الانتقالية وتجسيدها من أجل تقديم رسائل أخلاقية يطبعها بالدرجة الأولى روح المسؤولية، ويميزها التأكيد على مقومات وشروط الانتماء للجماعة والتقيد بشروطها وضوابطها، وبالتالي هي طقوس تتميز بالقهر والتعسف في استدراج الفرد وتطبيعها بطباع وسلوكات وقيم الجماعة

---

[1] نور العابدين (عمر)، المرجع السابق، ص ص 143.

[2] أبو مصلح (عدنان)، معجم علم الاجتماع، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2006، ص302.

وتمثل ثقافتها، فتكرار طقوس الولادة أو العقيقة أو الزواج في إطار منظومة من الأعراف والتقاليد والممارسات هو إحياء لتراث إنساني عريق بالنسبة للجماعة الاجتماعية، وكذلك تطبيع الجماعة بما يجب أن يكون الأفراد عليه أو ما يجب أن يتعودوا ويلتزموا به من أجل تحقيق الألفة والانسجام في السياق العام والخاص. إذ يعتبر "مصطلح شعائر الانتقال أو العبور Rites de Passage من مصطلحات الأنثروبولوجيا الثقافية، ويشير إلى تلك الاحتفالات الشعبية أو الشعائر التي تعلن الانتقال من إحدى مراحل العمر إلى المرحلة التالية لها. وتميل شعائر الانتقال أو العبور إلى التسليم بخضوع الفرد خضوعا كاملا للجماعة، ومن ثم قيامه بالتنفيذ الدقيق لمتطلبات هذه الشعيرة. والمثال النموذجي لهذه الشعائر هو الاحتفالات المرتبطة بالانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ[1].

إذا كان الماء ضروريا في الحياة،فإنه ضروري أيضا في بعض طقوس الزواج، إذ "ينظر إلى العريسين في هذه المناسبة على أنهما شخصان قابلان للتعرض للأذى، لذلك يجب تحصينهما عبر الاغتسال في ليلة الزفاف ليطهرا من كل مكروه مادي ومعنوي، وقد يترتب عند الامتناع حصول الأذى واللعنة"[2]، وهو طقس حاضر بقوة بواحة الجرف، إذ يعتبر ماء الخطارة وسيطا بارزا ومشروعا من أجل النقاء والطهارة وتفادي تأثير المخلوقات العجائبية، وتشارك بعض الفتيات العازبات العروس في هذا الاستحمام أو الاغتسال-الطهارة الدينية- تبركا بذلك الماء بنية تعجيل الزواج، وطهارة لهن من السحر والتيقاف. إن علاقة هذا الطقس بمياه الخطارة في المعتقد الجماعي لأهل واحة الجرف لا يرمز فقط إلى الطهارة والنقاء، بل ينظر إليه كمادة تضمن طمأنينة الزوجين وراحتهما، والمساعد في تسريع الخصوبة والإنجاب، في استحضار تام لتلك العلاقة الموجودة بين ماء الرجل ومياه الساقية الطاهرة. لذلك "العامة ترش العروسين بالماء، أو تنشره في طريقهما تفاؤلا به وتبركا. إنه مصدر الحياة، ومنبع الخصب والوجود"[3].

فإن ماء الخطارة عند سكان واحة الجرف يحتل مكانة متميزة في المجتمع، لأن استعماله يخترق جميع المجالاتوالأنشطة الطقوسية، كما أنه رمز من رموز الإنقا

---

[1]أندرو إدجار، وبيتر سيدجويك، موسوعة النظرية الثقافية المفاهيم والمصطلحات الأساسية، العدد: 1357/2، ترجمة: هنا الجوهري، مراجعة وتقديم وتعليق: محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط2، 2014، ص 369.

[2]سيرنج فيليب، الرموز في الفن، الأديان، الحياة، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق سوريا،ط1، 1992، ص 353-354.

[3]الغرابي الجيلالي، دراسات في الثقافة الشعبية، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص 94.

والوقاية والطاهرة. لذلك نجده حاضرا في طقوس الزواج نظرا لأهمية هذه المرحلة الانتقالية على مستوى الفرد والجماعة. فالجميع يسعى إلى تحقيق انتقال سليم للعريسين وتفادي أي ممارسة ضارة قد تكون لها أبعاد وامتدادات اجتماعية مستقبلية. فإن "رمزية الماء تستلزم الموت مثلما تستوجب النهضة... لدى بعض المجموعات الدينية يحافظ الماء على وظيفته، إذ يهدم الأشكال ويحكمها، ويغسل الذنوب، إنه بذرة الخصوبة"[1].

فالعروس بواحة الجرف في لحظة دخولها لبيت الزوجية يجب أن تخضع لطقس الماء، إما عن طريق رشها من طرف أم العريس بالماء، أو حمل كوب من الماء من طرف العروس، وقد يصل إلى أن تقوم العروس بكسر قدر به ماء على عتبة المنزل، أو رش العتبة فقط، "فأثناء ولوج العروس بيت الزوجية، يسكب الماء على العتبة، من أجل طرد الأرواح وكف أذاها عن العروس، وتطهير هاته (العروس) مما قد يكون عالقا بها من حسد وشرور وآثام ولعنات وكائنات غير مرئية"[2]. وبالتالي يتجسد الانتقال من العالم الخارجي إلى عالم الزوجية في ضرورة الانفصال عن عالم سابق عبر عتبة الباب في طقوس هامشية للانفصال من أجل التطلع للاندماج في عالم جديد وما يتطلبه من مسؤوليات والتزامات، حيث "يُصب الماء أمام العروس وخلفها أثناء عبورها باب بيت زوجها، بهدف جلب الثراء والخير... وأحيانا يجب على العروس ألا تلج غرفة الزوجية إلا وهي تحمل معها أشياء من بينها جرة مليئة بالماء"[3]. فالماء عبارة عن وسيط يمنح العروس شرعية الانتقال، والاحتفاء بها بأنشطة من التراث المائي المرتبط بالخطارة، فاجتياز عتبة الباب يجب أن يتم بشحنات رمزية بأبعاد اجتماعية محددة، تستهدف الطهارة والوقاية والحماية من كل أشكال المس أو التنكيل المحتملين في لحظة الدخول.

إن ماء الخطارة بالنسبة لسكان واحة الجرف، من حيث الوظيفة الدلالية، ينتقل من عملية الشرب إلى عملية الاغتسال، فهو مستوعب في الجسد، ثم يتحول إلى مستوعب للجسد. وبهذا "ماء الشرب يسري في الجسد سريان الجسد في ماء حوض الاغتسال"[4]. فعملية الخطارة الجرفية يرى فيه سكان الجرف تلك القضية المقدسة، ممارسة واعتقادا،

---

[1]Eliade Mircea, "Le sacré et le profane", Editions Gallimard, Paris, France, 1965, PP: 112-113-168

[2] العربي الجيلالي، دراسات في الثقافة الشعبية، ص 100.

[3] الفتح البكر (محمود)، العرس الشعبي، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص ص245-247.

[4] كلود ليفي ستراوس، الإناسة البنيانية، القسم الأول، ترجمة: حسن قبيسي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص 240.

لأنهم يتيمنون به في الممارسات الطقوسية الخاصة بالزواج، إذ يحمل المتخيل الاجتماعي مجموعة من الأفكار والتصورات عنه باعتباره ماء الحياة، أي أن استعماله في الحناء وعن طريق الرش أو الرشق من شأنه أن يشفي ويحمي ويبعث الروح في الخصوبة، لذلك "قضية تقديس عنصر الماء والتيمن به، ترجع إلى فكرة ماء الحياة، الذي يبعث الموتى إلى الحياة. وهي معتقد سائد في فلكلور البشرية معظمها، وخاصة في تراث الأمة العربية. ولعل الأصل في هذه الأسطورة الأم، أي الأسطورة البابلية التي تتحدث عن إنزال (عشترُوت[1]) حبيبها أو ابنها (تمُّوز[2]) إلى العالم الأرضي السفلي، وإعادتها الحياة إليه بواسطة ماء الحياة..."[3].إن علاقة هذا الطقس بمصادر المياه في المعتقد الجماعي لأهل واحة الجرف لا يرمز فقط إلى الطهارة بل ينظر إليه كمادة تضمن طمأنينة الزوجين، ومساعدة في تسريع الخصوبة والإنجاب في استحضار تام لتلك العلاقة الموجودة بين ماء الرجل ومياه الخطارة الطاهرة.

و يعتبر الموت ظاهرة طبيعية حتمية، لكنه في نفس الوقت من أكثر الظواهر التي تثير الخوف والغموض والتساؤل لدى الإنسان، لذلك يعد الطقس الجنائزي طقس مرور بامتياز، لأن "الموت هو انتقال من عالم الأحياء إلى عالم الأموات"[4]. وهذا الانتقال يرتبط داخل المجتمع الجرفيبمجموعة من الطقوس الضرورية لاحتواء هذا الحدث المثير للقلق، وبتضامن فعلي بين كل مكونات المجتمع، ومن هنا نجد أن مسألة غسل الموتى بهذه الواحة تعتبر إحدى المهام الرئيسية المنوطة بأشخاص يشهد لهم بالخبرة والمعرفة ويحظون بثقة كافة الساكنة. فيتعلق الامر بتجهيز الميت لاستقبال عالم آخر غير محسوس، وذلك من خلال بعض الترتيبات والطقوس الضرورية التي يحرص المجتمع على القيام بها وعدم التنازل عنها، لأنها وقاية من كل مكروه قد يلحق الميت، وربما يتجاوزه ليؤثر سلبا على الأحياء، مما يخلخل البنية الاجتماعية والمرجعية الدينية المعتمدة. وهذه الأمور وغيرها كانت هي الضامن لاستمرارية هذه الطقوس وتوارثها للأجيال من خلال المحافظة على بنية الذاكرة الشعبية بالواحة.

---

[1] ربة الجمال والحب، وهي ملكة السماوات.

[2] إله الخصب والحياة المتجددة.

[3] الغرابي الجيلالي، دراسات في الثقافة الشعبية، ص98.

[4] Salandier Georges, "Sociétés Traditionnelles", In Sociétés: de L'animal à L'homme, sous la direction de Philice Brunot, L'harmathan, Paris, France, 1980, P: 125.

ففي هذه المناسبة نجد الماء، وخاصة ماء الخطارة، حاضرا بكل قوة في الطقوس الجنائزية بواحة الجرف وبالضبط في مسألة غسل الميت، ويكون استعمال الماء مصحوبا بجملة من الممارسات والاحتياطات بسبب ما يمكن أن يستعمل ماء الغسل لقضاء أغراض خاصة، حيث يبدأ الأمر "بغسل الميت بالصابون والماء الدافئ لاعتقاد عامة الناس بأن الميت يشعر ويحس ويتألم"[1]. إن القضية الأساسية في هذه العملية، لم تقتصر على طهارة الميت فحسب بل تتجاوزه إلى عالم الأحياء وما يترتب عنه من سوء الأحوال وحصول الضرر، لذلك يتم الاعتناء أكثر من اللازم بماء الغسل،كمايجب التخلص عنه بشكل آمن حتى لا يقع في أيدي السحرة والمشعوذين لأنه مادة سحرية بامتياز، ويترتب عند الاستهانة بالماء قبل وبعد الغسل آفات اجتماعية تضر بالفرد والمجتمع، وقد يستعمل أيضا لتحقيق أغراض أخرى كحصول الإنجاب، حيث تعتقد بعض المجتمعات الأخرى أن "الاغتسال بصابونة سبق أن اغتسل بها أحد الموتى كفيلة لعلاج عدم الحمل"[2].

إن وظيفة ماء الخطارة في طقوس الموت لا تقف فقط في حدود غسل الميت وإنما تتعده إلى ما بعد الدفن، إضافة إلى استعماله في تحضير الطين للردم في القبر، حيث يستعمل بجانبه من أجل بث الحياة فيه على الدوام رغم رحيل الميت للعالم الآخر، لأن الإنسان في المتخيل الاجتماعي يعتقد أم الميت يعيش مع الأحياء داخل القبر ويدك كل ما يجير حوله، وبهذا يتم "ملء الأواني الفخارية بجوار المنازل لإرواء عطش المارة. وتمتد الرمزية الدينية لعنصر الماء لتشمل بعض الممارسات الشعبية المتعلقة بملء أواني من الماء فوق قبور الموتى كشكل من أشكال الترحم عليهم، وتوزيع أواني فخارية من الماء على الأطفال في المواسم الدينية كعاشوراء على سبيل المثال"[3]. فالاعتقاد عند الإنسان الجرفي راسخ بربط العلاقة بين الأموات والأحياء، من خلال خلق جسور للتواصل معهم عبر عنصر ماء الخطارة الذي يحظى بالقداسة، وذلك من أجل استمرار الزيارات والترحم على الأموات وجلب المغفرة والرحمة لهم، كما أن هذا الماء تشرب منه

---

[1] [illegible] (عبد المالك)، الثقافة والتنمية: دراسة الرواسب الثقافية على التنمية المستدامة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، [illegible] مصر، 2008، ص 231.

[2] [illegible] (عبد المالك)، المرجع السابق، ص 231.

[3] [illegible] (عادل)، الدينامية المجالية وأشكال تدبير الموارد المحلية والإعداد الترابي بأحواض الريف الغربي: [illegible] النهر يلوا دالخميس [illegible] سرتيل)"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، المغرب، 2019، ص 256.

الطيور ويرش على جنبات القبور لتبقى محاطة بالأعشاب والنباتات الطبيعية الخضراء، وكل أشكال وممارسات تحاول أو تبث في القبر الحياة من جديد.

أما عندما يشح المطر بواحة الجرف، تبدأ ممارسة طقس الاستسقاء، وذلك عبر رمزية"تاغَنْجَا" كعروس أُسطورية على شكل فَزاعة زراعية، وهي إحياء لمعتقد تعبدي قديم مرتبط بالاستسقاء، وأصل الكلمة أمازيغي، معناه: "المُعْرَفْ"، يتم لفُّه بقُماش لتجسيد فتاة عروس تنتظر أن تُزف إلى عريسها المطر، فتقوم النساء والفتيات والأطفال بالخصوص بِإلباس "مغرف" كبير الحجم ومصنوع من الخشب كلباس للعروس، ويطوفون به من بيت إلى بيت محمولاً إلىَ الأعلى، متوسلين اللّه سبحانه وتعالى في تحقيق مآربهم...وتستقبلهم ربَّاتُ البيوت بالرش بالمياه وإعطائهم شيئاً من الدقيق والسكر وغيرهما، وبعد ذلك يقَعُ اللجوءُ على أحد المساجد أو إلى ضريح أحد الأولياء، حيث يُصنع طعامٌ خاصّ يقَدَّمُ إلى كل المشاركين"[1]. فكلما أُصيبوا بالجفاف، مارسوا شعائر شعبية خاصة لطلب الغيث، فيجمع الأهالي الطحين ليتم طهيُه بالقرب من أحد الأضرحة من قِبَل نساء القبيلة وهم يرددون في المساء لَدى العودة من الضريح:

تـاغَـنْـجَـا، تـاغَـنْـجَـا	يا ربي تْصَبْ الشتا
آ السبولـة عَطْشَانـــة	غِـيثْـهـا يَـا مولانـا
تـاغَـنْـجَـا، تـاغَـنْـجَـا	حَلّت لْـرَاسْهَـــا
يَارَبِّي يَا رَبِّـي	تْـبَـلّـلْ خْـرَاصْهَـا"

ترتبط طقوس العبور أشد الارتباط بماء الخطارة بواحة الجرف، لأنه يحظى بأهمية بالغة عند الساكنة باعتباره ماء مقدسا ومشتركا عند الجميع، وبذلك نجده حاضرا في جميع طقوس الانتقال مثل الزواج والولادة والختان وعاشوراء والاستسقاء والموت وغيرها. فالماء يتميز بقوته التأثيرية على المجال والإنسان، وعلى صناعة متخيل اجتماعي غني من شأنه المساهمة في صناعة أسلوب العيش وطبيعة التفكير، وبالتالي يمكن اعتبار الماء بمثابة هندسة اقتصادية واجتماعية وثقافية لكل الممارسات والأنشطة التي تؤطر العلاقات والتفاعلات التأثيرية والتأثرية بين الإنسان الجرفي وبيئته.

---

[1] المصطفى فرحات، طقوس وعادات أهل "أبزو"، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، ط1، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 2007، ص. 44.

خاتمة

مما لا شك فيه أن الماء كان وما يزال عصب الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المجالات الواحية المغربية، ففي مثل هذه الأوساط القاحلة لا يمكن للحياة أن تقوم لها قائمة إلا بوجود الماء. إذتعتبر المياه دائما عنصرا أساسيا في استقرار السكان عبر التاريخ، وتفرض عليهم اختيار نوع أنشطتهم ونمط عيشهم، وتوجهنظامهم الاجتماعي، فأعرق الحضارات البشرية نشأت ونمت حول الأنهار الكبرى خصوصا حينما يتعلق الأمربالمناطق الجافة. وقد ساعد على ذلك القدرة العالية للماء في هيكلة المجال وتشكيل المجتمع. إذأصبح الماء يعدإحدى الأدوات الفعالة في عمليات إعداد المجال والتنمية الرامية إلى استقرار وتوازن المجتمع، كما أن للماء قدرةعالية في هيكلة المجال انطلاقا من المنشآت الكبرى والمتوسطة التي تتطلبها تعبئته. لذلك أنتجت لنا الأعراف والمؤسسات التقليدية تراثا مائيا ماديا ولا ماديا يتمايز من منطقة لأخرى حسب الخصوصية، من خلال خلق وابتكار عدة وسائل وآليات وتقنيات ذات الوظائف والأبعاد المتعددة، منها ما يهدف إلى تجميع المياه وتخزينها، ومنها يسعى إلى التوزيع العادل والتسيير الأمثل لما تم تجميعه من هذه المياه، في إطار تنظيم عرفي محكم منذ زمن بعيد.

أما واحة الجرف فتعتبر من المجالات الهشة وشبه الجافة، بحيث تشكل الظروف الطبيعية الصعبة الطابع المهيمن بها، ورغم ذلك فقد استطاع الإنسان الواحي أن يتكيف معها وذلك من خلال ابتكاره للخطارات لتدبير الموارد المائية، وقد اكتست هذه التقنية أهمية بالغة لكونها اتخذت أبعاد متنوعة، فمنها الجانب التاريخي والاجتماعي والاقتصادي، وذلك بتدبير محكم يسهر عليه مجلس القبيلة بمعية شيوخ الخطارة والمزارك، إلا أن مع توالي سنوات الجفاف وتزايد حدة الفيضانات فقد ازدادت هشاشة الظروف الطبيعية، كما ظهرت بعض التدخلات البشرية السلبية كالضخ الآلي للمياه وقد كان لكل هذا بالغ الأثر على التراث المائي، حيث تعرضت العديد من الخطارات بواحة الجرف إلى الجفاف، وضعف صبيب النشيطة منها، كما عرفت الممارسات والتقاليد المرتبطة بها تراجعا كبيرا مما أصبح يهدد أهم تراث بالواحة بالزوال.

وتوجد علاقة وطيدة بين القيم والخطارات بواحة الجرف، وذلك من خلال مجموعة من الأعراف والممارسات الفريدة في تدبير الماء، والتي افرزت العديد من القيم النبيلة كالتضامن والتكافل، والظاهرة بشكل أساس في تدبير أعمال الصيانة للخطارات أو عند التعرض لخطر كالفيضانات، فهذه العملية تتطلب دعم ومجهود كبيرين، لذا يقوم ذوي

الحقوق وغيرهم بالانخراط الكامل في هذه العمليات من أجل الحفاظ على استمرارية الخطارة، وبالتالي الحفاظ على أهم تراث لامادي بالجرف. كما تتضمن طرق تدبير الماء قيمة العدل، والمتجلية أساسا في الكيفية التي توزع بها حصص الماء بين ذوي الحقوق. فإن هذه القيم النابعة إدارة تدبير الماء بالخطارات بواحة الجرف بمثابة ركيزة أساسية لاستمرارية المجتمع الواحي الجرفيمتماسكا بتقاليده العريقة، ولذلك فإن الحفاظ عليها واجب ومفروض على الجميع من خلال التعبئة الشاملة للتعريف بها وإيصالها لأكبر فئة خاصة منها الناشئة، لكون هذا التراث المائي موروثا ماديا ولا ماديا للإنسانية جمعاء.

فإن إبراز دلالة ماء الخطارة في المخيال الشعبي بواحة الجرف يكشف أهمية الماء داخل المجتمعات الواحية، لأن الماء يحكي عن المجال والمجتمع، فهو يوظف داخل المكون الجماعي بين البعد المادي الصرف والبعد الرمزي، باعتباره قوة قادرة على جلب الرزق ودرء العين والسحر، فيتأرجح في كثير من المواضع بين ما هو مقدس وما هو دنيوي. ولقد حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية إبراز درجة حضور الماء في المخيال الشعبي داخل واحة الجرف، من خلال مجموعة من الطقوس والممارسات والمعتقدات وكذا قوة حضوره في البنية الاجتماعية والثقافية. وتجدر الإشارة إلى أن أغلب العناصر المشكلة للمخيال الشعبي المرتبط بالماء تتقاسمه المجتمعات الواحية داخل المغرب وخارجه، وهذا المعطى يبين عالمية دلالة الماء في بعض أوجهها، مما يسمح بفتح قنوات التواصل بين أقطار عالمية، مع التأكيد على خصوصيات محلية لكل موطن على حساب الآخر.